

دراسة نقدية

لأسلوب الأستاذ محمد كرد علي

الدكتور أبو بكر الكدلوندي

جامعة كاليفورنيا

الوفاء يفرض على الجيل الناشئ دراسة سير الأعلام من الجيل الراحل ، ليقف على أعمالهم الجليلة وليفهم أهدافهم النبيلة في حياتهم ليستنير من بصيصها وليقتبس من أنوارها هدى وثقافة . والأستاذ محمد كرد علي كان أمة في رجل ، وعبقرياً فذا أغنى المكتبة العربية بمؤلفاته العديدة ، وعالماً مصلحاً فكر في إنشاء مدرسة الآداب العليا وكلية اللاهيات ولم تكن في حوزته شهادة جامعية ، ومؤرخاً كتب تاريخاً شاملاً للشام ولم يكن للناس عهد بتاريخ مثل هذا من قبل ، وأديباً امتاز بأسلوب بليغ وبيان ناصع ، وصحافياً فتح باباً جديداً ونفخ روحاً جديدة في الصحافة السورية ، ومؤلفاً أليماً خرج من بيت رجل عامي تاجر ووصل الى رئاسة المجمع العلمي العربي في قدرة نادرة ، ومحققاً بجاثة وقف حياته لخدمة الأمة ولغتها وثقافتها . وهذا الرجل العظيم قد تناول أصدقاؤه الأعزاء وتلامذته الأوفياء بالبحث والدراسة كثيراً من الجوانب المتعددة لحياته الزاخرة^(١) .

وكان الأستاذ كرد علي صاحب القلم الحر كما كان صاحب النقد المر ، ونود أن نقوم هنا بتحليل أسلوبه ونتابع مراحل التطور ونستعرض خصائص هذا الأسلوب .

ويكون شغف الكاتب باللغة دافعه الأول للكتابة فنرى ألفاظه تبلور أفكاره وتصور عواطفه . وأنّ لقاح هذا الشغف باللغة مع ملكة الانشاء ينتج الأسلوب ، ويتفاوت هذا الأسلوب في رونقه ورسائته ووضوحه بقدر درجة هذا الشغف وتلك الملكة في الكاتب .

ويقول الاستاذ كرد علي بهذا الصدد : « إنّ اسلوب المرء يخترعه صاحبه ، لا يقتبسه عن غيره ، ولا ينقله من كتاب ، فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه وفنه ... والعبرة بالتراكيب ، والتراكيب ابنة من يصوغها ، ويزيدها جمالاً علم الكاتب ووفرة اطلاعه^(٢) .

هذا ما كتبه في تطور أسلوب الأديب . وقبل ما نقوم بتحليل أسلوبه وتقويمه لابدّ من أن نفهم العوامل التي ساعدته في انتاج نوع خاص من الأسلوب .

وبالنسبة للأستاذ كرد علي فانه لم يتمسك بنوع من أنواع الاسلوب ، ولم يلتزم صيغة من صيغه ، فقد بدأ كتابته مترجماً ثم عاش صحافياً وطفق يكتب المقالات ثم قام بالتأليف والبحوث الأدبية والتاريخية ، والتفت الى مجال التحقيق وسافر في طول البلاد وعرضها وكتب في رحلاته .

فأسلوب الصحافي يختلف عن أسلوب السائح ، ولأسلوب المنثني ميزات لا يرخص فيها المؤرخ ، والقصاص يمزج عواطفه بالحقائق ويلونها كما يشاء ، ولكن الباحث يستند إلى الحقائق ويدونها كما هي ولا مكان لعواطفه وخواجه فيها . وأسلوب الأديب إذا كان هادئاً مفتبطاً يختلف عن أسلوبه إذا هبت في قلبه عواصف الشعور والسخط .

وبيان الأستاذ كرد علي يدلّ على شخصيته الفذة وعبقريته المتعددة الجوانب ، فنرى كيف تطور فن كتابته ، وكيف تملك أسلوبه الممتاز .
وان الأستاذ كرد علي قد طالع أمهات الكتب للشعراء والادباء والمؤرخين والفلاسفة بين العرب والغرب مطالعة تدبر وتبصر . وهذه المطالعة الواسعة ساعدته في تكوين عقله وهدته الى منهاج تفكيره ، وارتقت ثقافته الى درجة استساغة الكتب المتنوعة التي قرأها واستفاد منها كما أراد .

وقد اتصل بالأدب الفرنسي اتصالاً وثيقاً ، وتتبعه للكتب الفرنسية - أدباً وتاريخاً وفلسفة وسياسة واجتماعاً - آتاه دقة في التعبير ووضوحاً في التصوير ، فزاد الروتق في أسلوبه .

والأستاذ كرد علي بدأ الكتابة بالترجمة . والمترجم لا يحقّ له أن ينقص من النصوص الأصلية ولا أن يزيد عليها حسب ذوقه ومزاجه . فلا مكان لأسلوبه الخاص في هذا الفن ، إلا أن يكون واضح العبارة وينعكس ذوقه وعلمه واجادته في اللغتين ، وذلك اذا كانت عباراته تثير نفس العواطف في القراء ، وإذا كانت الألفاظ والجمل تحمل نفس الفكرة والمعاني ، حتى يشعر القارئ بأنّ الكتاب ألف أصلا في هذه اللغة . وهذا ما نحسّ حين نقرأ « تاريخ الحضارة » للمسيو شارل سنيوبوس وعربيه الأستاذ كرد علي^(٣) . فقد أتقن اللغة الفرنسية وفهم ما قرأ وأحسن النقل والتعبير فتحذق في فنّ الترجمة .

وفي بداية الأمر كان الأستاذ كرد علي يلتزم أسلوب السجع والتقفية ، ويعتمد على التكلف في العبارة والسجع في الجمل والتنميق في اختيار الألفاظ ، وأخذ هذا من أساتذته الكرام أمثال الشيخ طاهر

الجزائري والشيخ محمد المبارك والسيد سليم البخاري ، وهم من المدرسة القديمة وكانوا يحافظون على أسلوب القدماء وعلى سبيل المثال نذكر بعض رسائله التي كتبها في شرح شبابه إلى الأستاذ فارس الخوري .

كتب في ٣ كانون الأول عام ١٩٠٤ م : « إن هذه العوائد أليق بربات الحجال منها بالرجال ، وبصغار الأطفال أمثل من أرباب اللحي والسبال »^(٤) .

وكتب ايضاً اليه في ٢٣ أيار ١٩٠٥ م : « والغالب أن رواج سوق « المعايدات » وارتفاع كلمة « التشريفات » والظهور في مظاهر الأبهات وتضييع الأوقات في التحيات والدعوات ، وكل ما تصرف على هذه القاعدة من الترهات أنت وأنا نعدّ من القوالين لا الفعّالين ، ومن المضيعين لا الجامعين ، ومن المهادمين لا البانين »^(٥) .

وقال أيضاً : « اللهم لا تجعلنا كالجعل يغتذي بالسرقين ، ويؤذيه الريحان والياسمين ، ويموت من السورد والنسرين ، أمين يارب العالمين »^(٦) .

والسجع في هذه الفقرات مصنوع والتكلف فيها شفيف ، ولكنه رأى فيما بعد أن هذا الأسلوب لا يصلح في عصر النهضة ونفض يده من السجع والازدواج المتكلف ويقول عن أسلوبه في « يتيمة الزمان في قبعة ليفان » (١٣١٢ هـ) : « وكانت معلّمة لي ، على صغر حجمها ، ألا أعاد طريقة الأسجاع التي بطل زيتها في هذا العصر »^(٧) .

وقال أيضاً : « وما أخرجني من تكلف النسج على منوال المتأخرين كالقاضي الفاضل والصابي وابن الأثير إلا الولوع بعد حين برسائل عبد

الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي أما ما وصل إليّ مما كتبه وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع فقد قرأته مرّات ولا أزال أقرؤه»^(٨) .

وقال في سجعه أيضاً وقد بلغ عشر الثمانين من عمره : « وإذا أردت اليوم أن أكتب كتاباً خاصاً في غرض من الأغراض يتعاصى عليّ تسطيره ، ذلك لأنني أريده مسجوعاً وقريحتي لا تواتيني ، والسجع مستحکم فيّ رضيت أم كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع»^(٩) .

وفيا بعد اختار الكتابة المرسلّة بدون تكلف الاسجاع والازدواج ، وهذا التطور في أسلوبه ملموس لأنّ بيانه عندما يخاطب العقل غير بيانه عندما يحلل الشخصيات ، اذ يكون هذا التحليل مشفوعاً بعواطفه ومزاجه ، ويصف الاستاذ شفيق جبري أبرز الخصائص في أسلوب الأستاذ كرد علي : « واسلوبه قد رزق مرونة عجيبة فهو لم يجمد على صيغة واحدة من البيان فقد صلح للغة العاطفة كما صلح للغة العقل وقدر على التاريخ والاجتماع كما قدر على الأدب وأفصح عن الأخلاق العامة كما أفصح عن خوالج صاحبه»^(١٠) .

وفي كتب الرحلات يصور المشاهدات تصويراً رائعاً ، ويذهب الى الدقائق في وصفه حتى يسهل للقارئ تصور هذه المناظر في ذهنه في صورة أقرب إلى الحقيقة ، ويدرس الشعوب المختلفة في البلاد التي سافر إليها ويسرد خصائصها وشمائلها في كتبه كما ينقل نبذة من التاريخ لاستكمال هذه الدراسة .

وفي المقالات يتخير الألفاظ السهلة لتؤدي المعاني الجليلة . والصحافة زادت قدرة البديهة في أسلوبه إذ اضطر دائماً الى الإسراع في صوغ الأفكار

والأخبار ، وفي ريعان شبابه مرّته المراقبة الصحافية على البديهة والارتجال . وهذا التمرن الطويل هو من أهمّ العوامل التي أدّت الى البيان المشرق والأسلوب المحكم ، وكتب مقالاته بأسلوب الاستقصاء بدون تعقيد ، واختار الألفاظ الخفيفة على اللسان والرائقة للسمع ، يكتب في جمل تطول حيناً وتقصّر أحياناً ، وهكذا طفق يُعنى بالمعنى أكثر من عنايته بالمبنى .

وامتاز أسلوبه بالرقّة من غير تفخيم ، والسهولة في التعبير من غير تكلف ، ويرسل النفس على سجيتها ، ويبيّن جملاً جميلة كأنه يصبّ الألفاظ في قوالبها ثمّ يقطعها تقطيعاً فنياً - فلننظر الى أسلوبه : « التّأليف في أمة مشعل نورها ، ومقياس تفكيرها ، ومعيّار نهوضها ، ورمز جهادها ، وعنوان حضارتها ، وآية مجدها ، فعلينا أن نفكر بما يورثنا هذا المجد ويعيد إلينا هذه السعادة »^(١١) .

واذاعة القدس دعتّه في شهر رمضان سنة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م لإلقاء خطبة بمناسبة العيد المبارك ، وهذه الخطبة أيضاً من هذا النمط في طلاوتها وحلاوتها . وقال فيها : « وعيد الأعياد يوم يحنو غنيكم على فقيركم ، وتمتدّ يد موسركم الى معسرکم ، وينصف قويكم ضعيفكم ، ويكثر بين أظهركم صدق العهد وصدق الودّ ، وتقلّ الفوارق بين طبقاتكم ، وتتوحدّ الأفكار في باديكم وحاضرکم ، فلا شعور الا بالوطنية ، ولا دعوة لغير القومية العربية »^(١٢) .

وقال أيضاً وهو يدعو إلى إصلاح المجتمع : « وطال الأمد على هذه الدعوة ، والمدمن ما برح على إدمانه ، والمقامر ما فتى مثابراً على قماره ، وظلّ البخيل متمسكاً ببخله ، والمسرف راضياً عن سرفه ، والكاذب

مغتبطاً بكذبه ، وانتضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يُرتجى ، وصرفت في هذه السبيل جهود لم يستردها عُشرها ، فهل من مطمع بعد هذا في أن نجعل من جذع يابس غصناً نضيراً ، ومن جسم ميت كائناً حياً»^(١٣) .

ويصف لنا الموسيقى في عبارة رائعة : « مدعاة السرور مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، عنوان الحياة الداخلية ، مهونة الخطوب ... فيها يتجلى العقل البشري الفعّال ... هذه هي الموسيقى ، وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجدها في كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنّة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وترّاً خاصاً بل أوتاراً تهزّ القلوب »^(١٤) .

ويصوّر لنا جيش صلاح الدين الأيوبي : « فان تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ، والنجدات كانت تأتيه سراعاً دراكا ، والفكر متجة الى مقصد واحد . استمات المسلمون في تأييد سلطانهم و حاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر و صنف الدهاء والخديعة ، وما الحرب إلا خدعة - قاتلوا ، كما قال شاهد العيان من المؤرخين ، مرة بالأبراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفةً بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وأونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطمّ الخنادق ، وأنا بنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والدهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للفرقة ويحالف التوفيق أعلامهم »^(١٥) .

وهذا النوع من السجع الذي نشاهده في الفقرات السابقة هو سجع حر مطلق وبديع صادر عن ايثار الفكرة لا تكلف فيه ولا تعمّل .

وفي كتب التاريخ عندما يبيّن الحقائق والأحداث ، أو في كتب الأدب عندما يناقش الأسلوب والميزات الأدبية يعمد الى أسلوب سهل مسترسل لا تزيد الألفاظ عن المعاني ، وتخرج بتدفق طبيعي فلا يزاوج بين الجمل ولا يتكلف الكناية والاستعارة والجناس والسجع . فلننظر الى قوله في منشأ الأديار : « أنشئت الأديار الأولى في الشام فهي موطنها الأول ذلك أن من المسيحيين من أخذوا يألفون العزلة لأول ظهورهم في صعيد مصر وجبال أنطاكية ينقطعون للنسك ، ولما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة الى انشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس . وأنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد وتسيّرهم إدارة رئيس واحد ثم اتحدت تلك الأكواخ والبيوت »^(١٦) .

فلننظر كيف يحلّل أسلوب ابن المقفع : « سرُّ تأثير ابن المقفع في مختلف العصور سلاسته وجزالته ، وبعد فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة في منخل دقيق نفى الزؤان مما يحمل ، أما التراكيب فهي موضع العجب رصف بعضها الى جانب بعض على غاية الاحكام ، ثم ليس هو في ألفاظه بالبخل ولا بالمسرف ، يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلّة قشبية ، فيجمع بين الجزالة والوضوح والايجاز ، ومعانيه كلها ناصعة وألفاظه كلها فصحة »^(١٧) .

فراه في المباحث التاريخية والأدبية امتاز بيانه بجلاوة الأسلوب وسلاسة المنطق بعيداً عن التراكيب الجافية وبريئاً من الغموض والالتباس . وفي المقالات العلمية التي حاضر بها ، نظم اطرادها ورتب موادها بذوق عال ورففها متلاصقة لئلا يشق إدراكها على السامع أو القارئ ، كما تسلح بقدرة قوية على التمثل والعرض ، وامتازت محاضراته

بحسن إلقائه ودقة ألفاظه وتأنقه في أداء القول . ويصف لنا ذكريات طفولته : « شعرت أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحبّ الاجتماع اليهن وأفضله على الاجتماع الى أترابي ، وأحب سماع كلام من يختلف منهنّ الى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهنّ من كنّ أرضعني فصرت ابنهنّ من الرضاع ، وغدا أولادهنّ أخواتي وأخوتي وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهنّ والبلديات يضممني الى صدورهنّ ويقبلنني ، وأضحهنّ وأقبلهنّ ، وأحسنّ ما كان يشوقني الجلوس في حجورهنّ ، والعبث بنهودهنّ وشعورهنّ وفضائرنهنّ . وكنت أحبّ ذات الشعر الأثيث »^(١٨) .

إذا تأملنا في أسلوبه ، وجدناه يشرق لفظا ومعنى ، لونا وذوقا ، كما يمتزج ببعض العواطف وذلك حين يذكر مغامرات الشباب ، أو يرسم تأوهات الشيخوخة ، أو يغني بهاء الطبيعة وجمالها ، اذ تهيج الخواطر ويفيض الشعور ويرفرف الخيال فيأتي بجمل مقتضبة وعبارات مترابطة .

وإذا درسنا الفقرات التي كتبها في عشر الثمانين وهو يناجي نفسه رأينا فيها أسلوبه الأنيق وهذا من أجل ما خطت أنامله : « يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عمّرت طويلا ، ومتّعت كثيرا ، وفتنت بجمال الوجود وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت اذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، وإلى السرور أكثر من الغمّ وعشت في سلطان الرضا طيبة الطعمة لا يد لأحد عندك » .

« يا نفس الحقّ مر والصادع به معذب وصاحبه أبدا هدف لطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحاً وتجديداً فهو عرضة للمصفقين والمصفرين »^(١٩) .

وهذا ما كتب الأستاذ في تحية باريس عندما شاهد العاصمة الفرنسية لأول مرة وافتتن بجمالها : « سلام عليك يا عشيقة الابداع والاختراع وسابقة الأقران في مضار الانتفاع بما حوت الرباع والبقاع ، استخدمت القوى المادية فأجدت استخدامها ، واستثرت القوى العقلية فأبدعت في استثمارها ، وأحييت حضارات الأمم السالفة ، وأنشأت لك حضارة لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب الى الترقى مها تقلبت بك الحال ، ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال » (٢٠) .

وكلامه في تحية الأندلس التي عشقها منذ الصبا دلالة واضحة على أسلوبه الرفيع : « عشقتها منذ عهد الصبا - وعشق الصبا شديد - لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها ، وحملته الى البصيرة ففكرت فيه وتدبرت خوافيه وحواشيه وزادني غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلي أصيبوا بما أصبت به وعدوا النزول في حماها ، ولو ساعة ، ساعة العمر وحسنة الدهر . (٢١) ليالي الانس في جزيرة الأندلس ، وأيامها الغر ، في سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ، وكمل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم أنك نسيت كل شيء ما عدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية إلا ثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك ، سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ، ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى » (٢٢) .

كذلك فقد صب قلبه وقلمه في وصف الغوطة التي كانت أحب بقعة إليه في الأرض وقضى معظم حياته فيها . وقال في وحي الغوطة :

« همت بسحرها في سحرها ، وبشمسها تأفل وراء شجرها ، وراقني وابلها وطلها ، ونداها وضبابها ، وجليدها وجدها ، وثلجها وبردها ، ودمقها وزمهيرها ، ونسيها وأعاصيرها »^(٢٣) ، « شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم ، وكأثرهم في مواسمهم وأعيادهم ورأيتهم يلبسون الخلق البالي ، ورأيتهم يلبسون الزواق الحرير ، شاهدتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه ، وشاهدتهم لا يشبعون خبز الذرة والشعير ، وراقبتهم في سكونهم وهوشاتهم ، وفي تلاتهم ومشاكلهم ، وفي سعتهم وضيقهم ، وعاشرتهم وسامرتهم ، على تقص محسوس في تربيتهم »^(٢٤) .

وكلما طالعنا أمثال هذه الفقر ، وما تنطوي عليه من أفكار ، وددنا أن نكرر مطالعتها أو أن نقرأ مزيداً من نوعها ، وذلك لأن هذا الأسلوب لذيذ وجذاب ينفذ في قلوبنا عند أول القراءة .

وقد ابتعد الأستاذ كرد علي عن الكتابة الباردة التي تجردت من الحرارة ، بحيث لا تؤثر في نفس قارئها ، ولا تبقى فيها أقل أثر نافع . قال : « تعزيت بما كتبه لأنه كان أكثره من الكتابات الحارة ، أي اني لم أكتب شيئاً من الحق الذي عرفته ، وهزرت شعور القارئ حتى يتلقى ماقراً بجملة أيضاً أنا من أنصار الكتابة الحارة لا الباردة ولا الفاترة ، لاعتقادي بأنها تأتي بالفوائد . أريد من الكتابة أن تبقى أثراً في النفوس ، وتنزع قديماً بالياً وتستعوض عنه بجديد مفيد »^(٢٥) .

فرائنا أن أسلوبه يتلون بتنوع موضوعاته ويختلف بموجب مناسباته ولكن له طابعاً خاصاً رغم تلونه وتغيره . فأسلوبه سهل مسترسل ممتع ، وقد ارتشف حظاً وافراً من تراث بلغاء العرب كما هضم قسماً عظيماً من آثار أدباء الغرب . فاختمرت في ذهنه أساليب ابن المقفع وعبد الحميد

والجاحظ والتوحيدى كما أثرت في أدبه أساليب فولتير وروسو ومونتسكو وبنتمام ورنان وتين ، وقد مرن على المطالعة الواسعة كما ثابر على بحوثه الشاقة ، وأضاء لها شموع عقله ولحمه ودمه ، فتشكل من كل هذا اسلوباً خاص به - الاسلوب الذي جمع فيه قوة بلاغة العرب ودقة أساليب الغرب فعبارته خالية من التعقيد وواضحة في معناها لا تخلو من رونق الفصاحة ، فكان هذا نتيجة اللقاح الفكري والأدبي في ذهنه ولقاءاته مع العلماء والأدباء والمستشرقين ، ونتيجة الكتابة المستمرة والدوام على المطالعة الواسعة ، فتميز بأسلوبٍ رائعٍ لفظه ، ورقيق معناه ، كما هو عربي مبين في العبارة والمضمون : « فقد تجتمع في بعض الأحيان في أسلوب كرد علي بلاغةً الجاحظ وطبعُ ابن المقفع وسهولة الغزالي وابن خلدون فتلتحم هذه الأمور كلها التحاماً محكماً متقناً فلا نجد فيها إلا السهولة والبساطة ، ومثلها في ذلك كمثل الشعاع من الشمس ، فإننا إذا نظرنا الى هذا الشعاع فلا نرى إلا لونه الأبيض ، ولكننا إذا رددناه إلى أصوله وفككنا أجزاءه ، اهتدينا إلى مختلف الألوان التي تؤلف الطيف الشمسي » (٢٦) .

فرأيناه في أسلوبه الأدبي ، وشاهدناه في أسلوبه العلمي ، وقرأناه في أسلوبه الاستقصائي وقد برزت فيها جميعاً مرونة أسلوبه وقوة بيانه ، وتميَّز أدبه بالصفاء والوضوح كما امتاز هو بالجمال في كتابته والعدوابة في بيانه والسلاسة في تعابيره .

وكان يدعو أصدقاءه وزملاءه لانتقاد كتبه ، ونشر هذه الانتقادات والمقترحات ، مع أنها قد تحتوي على العنف والشدة ، وكان الأستاذ يصرّ على أن يكون النقد نافعاً للكاتب والناقد والقارئ معا ، فانتفع منه حق الانتفاع ، وهذا واضح إذا نظرنا إلى تطور الكتابة في حياته الأدبية ،

وإذا قارنا مؤلفاته التي كتبها في شبابه خلال تجربته الأولى بالأدب والأدباء بما ألف في شيخوخته إذ نضج فيه العلم والأدب . ولما نشر خطط الشام أشار النقاد بأنه تنقصه الدلالات إلى مصادر الأقوال في أواخر الصفحات ، فاهتم بهذا الأمر وسجل الدلالات في كتابه الآخر (الإسلام والحضارة العربية) ، كما اعتنى بمجدول التصويبات والمستدركات في كثير من مؤلفاته ، وأعدّ الفهارس المتنوعة في كتبه التي ألفها أو حققها في النصف الأخير من حياته ، وهذا أمر يتطلبه العصر ، ليكون الكتاب أنفع ، والمنال منه أقرب ، والرجوع إليه أسهل للقارئ والباحث فيما بعد .

وقد ظهرت في مصر كتب نجد فيها مقتطفات من أدبه ومنها (أشهر مشاهير أدباء الشرق) لمحمد محمد عبد الفتاح ، وهو يعد الأستاذ كرد علي من كبار الأدباء في الشرق ويقرّنه في صف واحد مع الأساتذة العقاد وطه حسين و خليل مطران ومحمد عبده والافغاني والمنفلوطي^(٢٧) وكتاب (الأدباء الخمس) لإسماعيل عبد الحميد وفيه يكون الأستاذ كرد علي وحيداً يمثل الشام بين الأدباء المصريين وهم العقاد والرافعي وولي الدين يكن وقاسم بك أمين^(٢٨) كما ضمّ السيد أبو الحسن علي الندوي أدب الأستاذ كرد علي في كتابه (مختارات من أدب العرب) ، ^(٢٩) « وإذا ارتفع في انشائه بلغ من البلاغة كلّ مكان »^(٣٠) .

وأختتم هذه الدراسة بكلمات من العلامة الاستاذ محمد بهجة الأثري : « الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله أمة في رجل ، أهله مواهبه العديدة لأن يكون أحد بناء النهضة الحديثة وقادتها الكبار في بلاد العرب ، وسيرته مثال رائع لمضاء العزيمة وخلوص النية وصدق العمل وحبّ الخير

وإرادة الإصلاح ، نافح عن العروبة والاسلام ودعا الى الحرية وقاوم الاستبداد ، وأجال قلمه في ميادين مختلفة ، مستنهضاً وباعثاً على الحركة والاحياء ، وكتب ما كتب في الأدب والتاريخ والاجتماع والسياسة ببيان سهل ممتنع ورأي سديد ، ووقر لمؤلفاته مادة غزيرة وتحقيقاً جيداً ، فزخرت بالمفيد الممتع ، وجمع علمه بين أفضل ما في القديم وأمتع ما في الحديث من المعارف الانسانية» (٣١) .

المراجع

- (١) من هذه الدراسات : مقالة لسامي الدهان في مجلة المجمع العلمي العربي (مجلد ٣٠ جزء ٢ - نيسان ١٩٥٥) ، و (محاضرات عن محمد كرد علي) لشفيق جبري - جامعة الدول العربية / القاهرة / ١٩٥٧ ، و (قدماء ومعاصرون) لسامي الدهان دار المعارف بمصر / ١٩٦١ ، و (محمد كرد علي) لجمال الدين الالوسي / بغداد / ١٩٦٦ ، و (الأدب العربي المعاصر في سوريا) لسامي الكيالي / دار المعارف بمصر / ١٩٦٨ ، ومجلة مجمع اللغة العربية مجلد ٥٢ جزء ١ (العدد التذكري لمرور مائة سنة على ميلاد الأستاذ كرد علي عام ١٩٧٦ م) .
- (٢) المذكرات لكرد علي - مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٨ - ٥١ ج / ٤ ص ١١٩٣ .
- (٣) تاريخ الحضارة - تعريب محمد كرد علي / ادارة مطبعة الظاهر / القاهرة .
- (٤) المذكرات ج / ٣ ص / ٧٥٠ .
- (٥) نفس المرجع ج / ٣ ص / ٧٥٠ ، ٧٥١ [والاقتباس من رسالتين / المجلة] .
- (٦) نفس المرجع ج / ٢ ص / ٤١٧ .
- (٧) نفس المرجع ج / ١ ص / ٣٠٨ .
- (٨) نفس المرجع ج / ٤ ص / ١١٩٣ .
- (٩) نفس المرجع ج / ١ ص / ٣٠٧ [الكلمة ليست للأستاذ محمد كرد علي ، وإنما هي كلمة أستاذه محمد المبارك الذي ظل محافظاً على الطريقة القديمة / المجلة] .
- (١٠) محاضرات عن محمد كرد علي لشفيق جبري ص / ١٠٢ .
- (١١) أقوالنا وأفعالنا لمحمد كرد علي / دار إحياء الكتب العربية بمصر / ١٩٤٦ ص / ٤٠١ .
- (١٢) المذكرات ج / ٢ ص / ٤٧٤ .

- (١٣) اقوالنا وأفعالنا ص / ٧ .
- (١٤) غرائب الغرب لمحمد كرد علي / المكتبة الأهلية مصر / ١٩٢٢ ج / ٢ / ص / ٣١ .
- (١٥) خطط الشام لمحمد كرد علي / المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٢٥ - ٢٨ ، ج / ٢ / ص / ٦٨ - ٦٩ .
- (١٦) نفس المرجع ج / ٦ / ص / ٤ .
- (١٧) أمراء البيان لمحمد كرد علي / دار الامانة بيروت / ١٩٦٩ ص / ٩٢ .
- (١٨) المذكرات ج / ١ / ص / ١٤ .
- (١٩) نفس المرجع ج / ٢ / ص / ٦٤٩ - ٦٥٣ .
- (٢٠) غرائب الغرب ج / ١ / ص / ٤٨ .
- (٢١) غابر الأندلس وحاضرها لمحمد كرد علي / المكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٣ ص / ٩ .
- (٢٢) نفس المرجع ص / ١١ .
- (٢٣) غوطة دمشق لمحمد كرد علي / المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٢ / ص / ٢٧٢ .
- (٢٤) نفس المرجع ص / ٢٧٤ - ٢٧٥ .
- (٢٥) المذكرات ج / ٢ / ص / ٥٧٥ - ٥٧٦ .
- (٢٦) محاضرات عن محمد كرد علي ص / ١٠١ .
- (٢٧) اشهر مشاهير ادباء الشرق لمحمد محمد عبد الفتاح / مكتبة المحمودية التجارية بمصر ص / ٨٢ - ١١٣ .
- (٢٨) الادباء الخمس لاسماعيل عبد الحميد / المكتبة المصرية بمصر .
- (٢٩) مختارات من أدب العرب للسيد ابو الحسن علي الندوي / مكتبة دار العلوم لكهنو / الهند .
- (٣٠) محاضرات عن محمد كرد علي ص / ١١٢ .
- (٣١) مقدمة كتاب (محمد كرد علي) لجمال الدين الالوسي / بغداد ١٩٦٦ .